بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم إلى مقام إمام العصر و الزمان المهدى المنتظر ﴿عليه السّلام﴾

نهاية الغيبة

إسماعيل شفيعي سروستاني

كَافَّةُ حُقُوق الطّبع وَ النَّشرِ وَ التَرجَمَةُ مَحفُوظَة لِلنَّاشِر
«موعود العصر(عج)»

لصاحبه

اسماعيل شفيعي سروستاني

ترجمة:

كاظم شماعيان

الطّبعَة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

ايران ـ طهران ـ شارع ولى عصر ـ شارع الشهيد دانش كيان ـ رقم ٣٣

ص ب ٨٣٤٧ ـ ١٤١٥٥

هاتف: ٨٨٩٤١٣٣٧ ـ ٠٢١ (٠٠٩٨)

٨٨٩٤١٢٣٥

فاكس: ٨٨٩٤١٤٠٢

الفهرس

الفصل الأول: نهاية الغيبة ٦

الرسالة الخفية للأيام ٧

كل يُدعى بإمامه ١٢

المعية فى القيامة، ثمرة المعية فى الدنيا ١٤

الغيبة، سُنة الله المتعال ١٩

الغيبة، جزاء أعمال الأمم ٢٣

إختبار الخلق بالغيبة ٢٥

حيرة النعجة على ضفاف النهر ٢٩

هو الغنى ٣٤

جعل التكليف ٣٨

و فى التأخير آفات ٤١

الفصل الأول:

نـهاية الغيبة

الرسالة الخفية للأيام

تتوالى الأيام والأحيان يوما بعد يوم، وقد اعتدنا على هذا الذهاب والمجئ. و كل ما يصبح عادة للمرء، يصبح عاديا أيضا. و لذلك نعتبر الأيام كلها بانها على غرار أحدها الآخر، ولم يعد السعد والنحس، المبارك والمشؤوم، والنسبة التي تجدها الأيام مع أمر مطهر وقدسي، وما تجلبه من بركة يفوق كل التصورات الانسانية، له مفهوم ومغزى بالنسبة لنا، بعبارة أخرى، وبسبب الأصالة التي أضفيناها على الزمان الفاني والكمي، باتت أعيننا عمياء وآذاننا صماء على أي أمر قدسي. وهذه هي التعاسة بعينها والإبتلاء بمكر الليل والنهار بشكل ما.

إن البؤس والتعاسة هما الإنغلاق والتيه في الزمن الحاضر وإنغلاق أفق الرؤية على الزمان الباقي والعالم المعنوي، شئ يشبه الإستقرار في مدار الجماد والنبات و الحيوان.

والبائس هو كائن مسكين، إنفصم عن عالم ما وراء العالم الحيواني، وغرق في دوامة الأكل والنوم والغضب والشهوة. وفي هكذا ظرف، ينسى الإنسان من أين أتى و إلى أين هو ذاهب.

والآن حيث استهل دفتر الكلام باسم «مولود ليلة النصف من شعبان «، لم أكن أود الحديث عن البؤس وانغلاق عيون وآذان الانسان الحاضر في الزمن المعاصر، على الزمان الباقي والإبتلاء الجماعي بغيبة حضرة بقية الله، أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، لكن ما العمل؟ فبين جميع الأيام والأحايين، ثمة أيام موسومة بما فيها ليلة النصف من شعبان، تخرجنا عن الزمان الحالي وتمهد لتذكر البيت والوطن المألوف.

و ربما وضعت هكذا أيام لكي يسمع الإنسان على لسان الناي كما يقول مولانا في هذا البيت:

وما أن قطعوني عن حقل القصب حتى أصبح الرجال والنساء يئنون من نفيري

و ربما وضعت أيام موسومة ومُعلّمَة مثل ليلة النصف من شعبان لكي يجد المرء الذي انفصل وانفصم عن العالم الانساني، نفسه ويتعرف مرة أخرى على معنى و مغزى وجوده ووجهته.

وفي مثل هذه الأيام حيث يتذكر الانسان ماضيه ومستقبله، وما وراء المكان و الزمان الكمي والفاني، ومن حيث جاء وحيث يجب أن يرحل، ليتخلص من البؤس و التعاسة والتورط في الزمن الحاضر ويعرف حقيقته وهويته وقدره وقيمته. وهذه الموهبة المتمثلة في التذكر، هي التي تعزل المرء عن الكائنات التي تقطن العالم الحيواني. فالحيوان في حياته الأحادية، ليس بحاجة إلى هذا التذكر.

و حينما يتذكر الإنسان، الماضي ويتعرف على مقامه وهويته، فانه سيعتبر و يتعظ من التاريخ وما جرى للأمم والشعوب السالفة و يسير نحو المستقبل. و حسبما يقول الدكتور رضا داوري:

«عندما يصاب قوم بالنسيان وضعف الذاكرة، فلن يكون بمقدورهم التعاطى مع التاريخ حتى يتعظوا منه، وأن الذين يسيرون وأعينهم على المستقبل، فان اهتمامهم بالتاريخ هو العبرة ذاتها».[١]

إن الزحام والجلبة الناتجين عن الحداثة والعصرانية والحياة الآلية، قد استوليا على جسمنا وروحنا لدرجة أنهما أتيا على كل إمكانية للتذكر والإصغاء إلى رسالة الأيام والآيات المقدسة. لذلك لانستفيد من كل هذه الأيام والآيات المقدسة، سوى ما تقدمه لنا الصفحات الحمراء من التقويم وما يتضمنه من عطل وإجازات، لكي ننجز ما تأخر من أعمال أو نجد فرصة للتسلية والترفيه. وهذا يزيد من الغفلة التي انهارت على أرواحنا. ماذا عسانا أن نقول!

وحول المكانة السماوية لليلة النصف من شعبان، نقل عن النبى الأكرم(ص) روايات عديدة، ومنها قال رسول الله(ص): «كنت نائماً ليلة النصف من شعبان، فأتانى جبرئيل فقال: يا محمد أتنام فى هذه الليلة ؟ فقلت: يا جبرئيل وما هذه الليلة ؟ قال: هى ليلة النصف من شعبان قم يا محمد. فأقامنى ثم ذهب بى إلى البقيع ثم قال لى: إرفع رأسک فان هذه الليلة تفتح فيها أبواب السماء، فتفتح فيها أبواب الرحمة، وباب الرضوان، وباب المغفرة، وباب الفضل، وباب التوبة، وباب النعمة، وباب الجود، وباب الإحسان، يعتق الله فيها بعدد شعور النعم وأصوافها، و يثبت الله فيها الآجال، ويقسم فيها الأرزاق من السنة إلى السنة، وينزل ما يحدث فى السنة كلها. يا محمد من أحياها بتسبيح وتهليل وتكبير

١. داوري أردكاني، رضا، مجلة أكاديمية العلوم، اسفند ١٣٨٩، المقال الإفتتاحي.

ودعاء وصلاة وقراءة وتطوع واستغفار كانت الجنة له منزلا ومقيلا، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».[١]

إن فضيلة هذه الليلة بسبب مولودها أي خاتم الأوصياء، تزداد رفعة بحيث أنه ورد في الأدعية الخاصة بليلة النصف من شعبان بان صاحب الدعاء يسأل الله بحق هذه الليلة أن يقضي حاجته.

«اَللّـهُمَّ بِحَقِّ لَيْلَتِنا وَمَوْلُودِها، وَحُجَّتِکَ وَمَوْعُودِها، الّتی قَرَنْتَ اِلی فَضْلِها، فَضْلاً فَتَمِّتْ کَلِمَتُکَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِکَ...».[٢]

إن وصف الأولياء الإلهيين لهذه الأيام والليالي والأحايين الخاصة والموسومة والمُعَلَّمَة يبين بان كل النُهُر والليالي التي تمر علينا، ليست بمستوى واحد. فقد فضل بعضها على بعض بحيث أن الله تعالى يُقسم بها، مثلما أن جميع الأرضين في كل أرض الله الواسعة، ليست بنفس المستوى. لذلك أقول: إن كلا من الأيام والمواقع الموسومة والمشرفة، تحمل أذكارا ونقاطا خاصة، فان تم دركها، يعلو الانسان بواسطتها وبمددها والإستعانة بها لينجو من البؤس والتعاسة.

وقد فضل الله، خالق الأرض والزمان، بعض الأيام والليالي على سائر الأيام والأحايين، وقدر فضائل وعظمة وكرامة خاصة في تلك الأيام والليالي الخاصة والموسومة، فقد نقل عن الإمام الصادق(ع) في بيان أعمال وأدعية أيام وليالي شهر رمضان المبارك:

---

١. إبن طاووس، علي‌بن موسى، «إقبال الأعمال»، طهران، دار الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٩، ج ٢، ص ٦٩٩؛ المجلسي، محمدباقر، «بحار الأنوار»، بيروت، دارإحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣، ج ٩٥، ص ٤١٣.

٢. الطوسي، محمدبن الحسن، «مصباح المتهجد وسلاح المتعبد»، بيروت، مؤسسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، ١٤١١، ج ٢، ص ٨٤٢.

«وَ هذا شَهْرٌ عَظَّمْتَهُ وَ كَرَّمْتَهُ، وَ شَرَّفْتَهُ وَ فَضَّلْتَهُ عَلَى الشُّهُورِ، وَ هُوَ الشَّهْرُ الَّذى فَرَضْتَ صِيامَهُ عَلَيَّ، وَ هُوَ شَهْرُ رَمَضانَ، الَّذى اَنْزَلْتَ فيهِ الْقُرْآنَ، هُدىً لِلنّاسِ وَ بَيِّنات مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانَ، وَ جَعَلْتَ فيهِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَ جَعَلْتَها خَيْراً مِنْ اَلْفِ شَهْرٍ ...».[١]

وربما يمكن بواسطة النسبة القائمة بين ليلة ويوم النصف من شعبان و «المولود الموعود» والفضيلة التي تحصلت بسببها، درك وفهم بان هذه الليلة وهذا اليوم، تهيب بالانسان وتعلن للجميع بان:

إمامكم غائب!

أيها الناس، لا تتركون بغير إمام!

وعليكم فى إبتلاء و إمتحان الغيبة، أن تبحثوا عن إمامكم!

إن كلا منا، يمشي في الأرض بحثا عن إمام حمل عهده على عاتقه وكل سيُدعى في القيامة الكبرى بالإمام الذي أقر بامامته وكأن هذا الإمام يقول:

أيها الناس، لا أحد وحتى أى حقل ثقافى وحضارى لا يُترک بغير إمام، وظننتم خطأ بان المجالات الثقافية، لا تحمل على عاتقها عهد إمام.

إن هذه الليله واليوم الموسوم، يذكرنا في زحمة بؤس أبناء آدم بان:

أيها الناس، يجب أن تتخلصوا من صورة وسيرة إمامة الكفر والشرک والزندقة المسيطرة ومظاهرها الثقافية والحضارية، واعلموا، أنه إن لم تتطابق أفعالكم وأقوالكم مع الإمام المعصوم المنصوب من قبل حضرة الحق جل وعلا، فلن تدعوا بإمامكم فى اليوم العصيب الذى يُدعى كل بإمامه.

---

١. القمي، الشيخ عباس، «مفاتيح الجنان»، أعمال وأدعية شهر رمضان المبارك.

إن هذه ذكرى، تذكرنا بالأيام الموسومة والمعلومة والمقدسة بما فيها ليلة النصف من شعبان.

إن عاقبة عدم الإصغاء إلى الرسالة الخفية لهذه الأيام وعدم الإصغاء إلى تذكارها، ليست سوى استمرار طول غيبة حجة الله في الأرض.

كل يُدعى بإمامه

إن الانسان المتدين والمقيم في الثقافة الدينية المؤمن بالمعاد والسائر على خطى الذكر الشريف والسماوي «القرآن الكريم» يعرف بأن حقيقة كل شئ تتكشف وتتضح بعد الموت وفي القيامة الكبرى، وكل يُحشر مع من كان متعلقا به ومحبا له من سويداء قلبه، كما يعرف بان كل أناس يدعون بإمامهم ويوضع كتابهم في أيديهم ليعرفوا ماذا فعلوا وماذا سيمر عليهم.

إن الآية الكريمة:

«يَوْمَ نَدْعُو كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِکَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً».[١]

وقد ذكر الائمة المعصومون كلاما جميلا، بما في ذلك روي في «تفسير البرهان» عن الإمام الصادق(ع) في تفسير هذه الآية قوله:

«إذا كان يَوم القيامة يُدعى كُلّ بإمامه الذى ماتَ فى عَصرِه، فإن أثبتهُ أعطىَ كِتابَه بيَمينِه لِقولِه: «يَوْمَ نَدعو كُلَّ أُناسٍ بإمامهم فَمن أوتىَ كِتابَه بيَمينِه فأولئِک يَقرؤنَ كِتابَهُم» واليمين إثباتُ الإمام لِأنه كِتابٌ له يَقرؤهُ لأن الله يقول:

١. سورة الإسراء، الآية ٧١.

«فأما مَنْ أوتى كِتابَه بيَمينِه فيَقول ها ؤم اقرؤا كتابيه إنى ظَنَنْتُ أنى مُلاقٍ حِسابيَه، إلى آخرالآيات، والكتابُ الإمام فَمَن نَبَذهُ وَراءَ ظَهْرِهِ كان كَما قال: «فَنَبذوهُ وَراءَ ظُهورِهم « وَمَنْ أنكرَهُ كان مِنْ أصحابِ الشمال الذين قال الله: «ما أصْحابُ الشمال فى سَمُومٍ وحَميمٍ وظِلٍّ مِنْ يَحْموم»[١].

بعبارة أخرى، فان كل يدعى في يوم المحشر الكبرى، بإمام زمانه وعصره، لان حجة العصر والزمان لكل أناس يختلف عن الأناس الاخرين. وكما يقول الإمام الصادق(ع) فان كتاب كل امرء هو إمام عصره وزمانه وعليه أن يثبت ويبرهن اعتقاده وإيمانه حول إمام عصره وزمانه. وفي هذه الحالة سيعتبر من أصحاب اليمين ويؤتى كتابه بيمينه.

وفي الحقيقة فان قدر كل امرء يتحدد ويتضح مع إمام عصره وزمانه والمعرفة التي يكنها تجاهه، لا بطول وعرض عباداته وصلاته وصومه، لان حقيقة الدين وكتاب الله تتجلى في الإمام المعصوم والمنصوب من لدن حضرة الحق. ألا وهو حائز على ولاية الكلّية الإلهية.

والحديث النوراني لرسول الله(ص) إذ قال:

«مَنْ مَاتَ ولَمْ يَعْرِف إمامَ زَمانِهِ فَقَد ماتَ مِيتَة جاهِلِيّة».[٢] يؤكد هذا المعنى.

إن معرفة إمام الزمان وولايته والتقرب إليه هو سبب النجاة والفلاح وتجاوز عقبات البرزخ والقيامة، ونتيجته الحتمية هي الدعوة مع ذلك الإمام، ولكن في جانب

---

١. العياشي، محمدبن مسعود، «تفسير العياشي»، طهران، المطبعة العلمية، الطبعة الاولى، ١٣٨٠، ج ٢، ص ٣٠٢؛ البحراني، سيدهاشم، «البرهان في تفسير القرآن»، قم، بعثت، الطبعة الاولى، ١٣٧٤، ج ٣، ص ٥٥٣.

٢. إبن شهر اشوب مازندراني، محمدبن علي، «مناقب آل أبي طالب(ع)»، قم، علامة، الطبعة الاولى، ١٣٧(ص) ق، ج ١، ص ٢٤٦؛ الشيخ حر العاملي، محمد بن حسن، «وسائل الشيعة»، قم، مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩، ج ١٦، ص ٢٤٦.

اخر، فان إحلال أي شخص وأي شئ محل إمام العصر والزمان والتقرب إليه يؤدي حسب كلام المعصومين، إلى الإلتحاق والحشر معه في يوم القيامة.

وعَنِ الرَّيَّانِ بْنِ شَبِيبٍ، عَنِ الرِّضَا(ع) ـ فِي حَدِيثٍ ـ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ شَبِيبٍ: «إِنْ سَرَّكَ أَنْ تَكُونَ مَعَنَا فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجِنَانِ فَاحْزَنْ لِحُزْنِنَا وَ افْرَحْ لِفَرَحِنَا وَ عَلَيْكَ بِوَلَايَتِنَا، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجَراً لَحَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

المعية في القيامة، ثمرة المعية في الدنيا

إن المعية تعني مرافقة ومصاحبة أحد ما وبعبارة أخرى فان «الولاية» وملازمة «الولاية» في الدنيا، واستنادا إلى الكلام الوحياني للقرآن الكريم وأئمة الدين تؤدي بالضرورة إلى المعية والمرافقة في القيامة. وبالعبارة المشهورة: الإناء ينضح بما فيه.

وقد جعل الله تعالى، الفلاح رهنا وشرطا ب «معرفة الإمام» و «ولاية الإمام». ولذلك فان هذا الأمر (معرفة الإمام والولاية) لم يُجعل في عرض سائر الأعمال، بل اعتبر ركنا رئيسيا للتدين وكفيلا بصحة وسلامة وقبول سائر الأعمال والتكاليف.

وعندما يتضح للمرء بان الأمر صدر للملائكة والأجنة بالسجود لخير خلق الله وكُلف الجميع بالتبعية التامة للإنسان المتكامل، حضرة ولي الله، طرد الشيطان المتمرد العاصي من رحمة الله بجرم التمرد على أمر السجدة. فقد وضع الله تعالى

١. إبن بابويه، محمدبن علي، «الأمالي»، طهران، كتابجي، الطبعة السادسة، ١٣٧٦، ص ١٣٠؛ إبن بابويه، محمدبن علي، «عيون أخبار الرضا(ع)»، طهران، الصدوق، الأول، ١٣٧٢، ج ١، ص ٦٠٥.

قاعدة ثابتة: فقد جعل طاعة الإنسان المتكامل (حضرة ولي الله) في عرض طاعته واعتبر اتباع الولاية وقبول الولاية شرطا للتدين وقبول سائر الأعمال والعبادات.

وقال الإمام الباقر(ع):

«ذِرْوَةُ الامْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الاشْيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ تَبَارَکَ وَتَعَالَى الطَّاعَةُ لِلامَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الله تَبَارَکَ وَتَعَالَى يَقُولُ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ الله وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناکَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً – أَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَ صَامَ نَهَارَهُ وَ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَ حَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَ لَمْ يَعْرِفْ وَلَايَةَ وَلِيِّ اللَّهِ فَيُوَالِيَهُ وَ يَكُونَ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بِدَلَالَتِهِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَ عَزَّ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ وَلا كانَ مِنْ أهلِ الإيمان».[١]

ولسبب المنزلة الجوهرية والحاسمة للفلاح والسعادة الدنيوية والاخروية لهذا الأمر الولائي أقول بان توالي الأيام الخاصة تنطوي في حد ذاتها على تذكار خاص تتلقفه كل نفس واعية. وكأن الله ومن خلال التذكير بشأن تكريم هذه الأيام أفسح المجال لأبناء آدم لإيجاد المفتاح الذي يفك جميع الأقفال والإنتماءات، قبل فوات الأوان. وفي ضوء ذلك فان ابليس وجنوده يسخرون جل همتهم ليمنعوا أبناء آدم في زحمة الغفلة والغيبة، من الوصول إلى سر وذكر هذه الأيام. إن النسبة التي يقيمها هذا اليوم الخاص (ليلة النصف من شعبان) مع حقيقة الوجود أدت إلى أن تفتح في هذا اليوم أبواب الرحمة الإلهية على العباد، مثلما أن جبرئيل الأمين عرض خصائص وميزات ليلة النصف من شعبان على النبي الأكرم(ص).

١. الكليني، محمدبن يعقوب، «الكافي»، طهران، دارالكتب الاسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧، ج ٢، ص ١٩.

لكن واحسرتاه! فان هذا الباب الخاص يغلق مع انقضاء ذلك اليوم الخاص، حتى سنة أخرى و يوم آخر.

وقد يسأل سائلهم، أنه كيف يتم بعشرات السنين قبل ميلاد الإمام المهدي(عج) في ليلة النصف من شعبان و في عصر الرسول الأكرم(ص) الحديث عن رفعة هذه الليلة و اليوم و بركاتهما الخاصين للمؤمنين؟

و للإجابة على هذا السؤال، ثمة انطباعان: الأول أن هذه الليلة واليوم وكما هو علمهما عندالله تعالى، إكتسبتا قدسية ومكانة خاصة بالاف السنين قبل الميلاد الميمون للإمام المهدي، أرواحنا له الفداء و ربما منذ اليوم الأول من الخلقة، و زاد الميلاد المبارك للإمام المهدي (عج) من عظمتهما وشرفهما وقدسيتهما. أما الإنطباع الثاني فهو إن هذه الليلة واليوم اكتسبتا شرفا وقدسية بسبب مقام ومنزلة أهل البيت وحضرة خاتم الأوصياء لدى الله والعلم الأزلي لله المتعال حول يوم ولادة ذلك المولود المختار في هذا اليوم، لكي لاتبقى مجمل الأمم والخلائق و حتى الأمم السالفة، من دون أن تتمتع بهذه البركات. وإني اذ اعتبر الإنطباع الثاني مقرون بالصحة.

و إن رجعنا إلى فضائل أهل البيت(ع) ومقامهم النوراني والروحي عند الله تعالى، واستنادا إلى الروايات الواردة من المعصومين، فان الحديث يدور حول أولويتهم وأفضليتهم وقربهم إلى الله تعالى، فانه يتم الإستناد إلى صحة الإنطباع الثاني.

إن جميع الأنبياء والأوصياء السلف، بدء من النبي آدم(ع) فصاعدا، كانوا مكلفين وملزمين بتكريم مقام وشرف آل محمد(ص)، وعبروا جميع المنعطفات العصيبة من

خلال التوسل والتمسك بهذه الذرية الطاهرة، ونالوا الفلاح وكانوا كلهم يعرفون بان الشرف الأزلي والذاتي الممنوح لهم، قدمهم على أنهم الدافع لخلق الكون وكونهم أول مخلوق (في المقام النوري) وواسطة الفيض.

وقال النبي الأكرم(ص):

«إنَّ الله تَبارَکَ وتَعالى فَضَّلَ أنْبياءَه المُرْسَلين عَلى مَلائکَتِه المُقَرَّبين وفَضَّلَنى عَلى جَميع النَّبيِّين والمُرْسَلين».[١]

وعن فضل آل محمد(ص) على سائر الأنبياء والمرسلين، وردت الكثير من الروايات. إن بيان «إكمال الدين» في الإسلام وخلود «القرآن» مقارنة بسائر الكتب السماوية وخاتمية نبوة محمد(ص) مع بعثة رسول الله(ص) وتقدم الخلقة النورية لآل محمد(ص) في فجر الخليقة نسبة إلى جميع الكائنات، يميط اللثام عن أفضليتهم. وقال النبي الأكرم(ص) في «خطبة الغدير»:

«ما مِنْ عِلْمٍ إلاّ وقَدْ أحْصاهُ الله فىّ»؛[٢]

وبلا شك فان علوم جميع الأنبياء السابقين، هي من ضمن هذه العلوم. لذلك فان رسول الله(ص) هو أفضل وأكمل الأنبياء السابقين. وبعبارة أفضل، فان رسول الله(ص) كشف النقاب عن أفضلية «القرآن الكريم» نسبة إلى سائر الكتب وقال:

«فَضْلُ القرآنِ عَلى سائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ الله عَلى خَلْقِه».[٣]

---

١. «عيون أخبار الرضا(ع)»، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٢؛ فيض كاشاني، ملامحسن، «تفسير الصافي»، مشهد، دارالمرتضى، ج ١، و ج٣، ص ١٩٨.
٢. الطبرسي، أحمدبن علي، «الإحتجاج على أهل اللجاج»، مشهد، مرتضى للنشر، الطبعة الاولى، ٤٠٣، ج ١، ص ٦٠؛ «بحارالأنوار»، المصدر السابق، ج ٣٧، ص ٢٠٨.
٣. «بحار الأنوار»، المصدر السابق، ج ٨٩، ص ١٩.

وعلى أي حال يمكن القول بان دائرة تلألؤ ونورانية هذا اليوم المقدس (النصف من شعبان) كانت بواسطة ذلك المولود المقدس شاملة لدرجة أنها غطت من خلال كسر قيود الزمان والمكان الفانيين، جميع الأزمنة السالفة والمستقبلية وجميع الأمم.

وفي هذا اليوم، يُفتح وقت وحظ، وتُفتح أبواب الرحمة بوجه الخلق، لتنزل عطية وهبة، ليتلقفها أي انسان وينتسب إليها، ويتمتع بها، وكما قال الرسول الأكرم(ص) ينال مغفرة وعفوا ورزقا وافرا.

الغيبة، سُنة الله المتعال

إن ليلة النصف من شعبان، تذكر الناس بانهم ليسوا بغير إمام وأن إمامهم الغائب، ينتظرهم. وهذه الواقعة تتكرر سنويا وحتى أن سكان بعض المدن، بما فيها «سبزوار» (بيهق) كانوا يقومون بصورة رمزية بايفاد مركب وراكب إلى بوابات المدينة ليظهروا إنتظارهم الطويل وحتى أنهم كانوا يحتفظون في صناديقهم في البيوت بخنجر وسيف لكي يهرعوا لنصرة إمامهم إن وقعت واقعة الظهور.

لكن وعلى اثر إطالة أمد الغيبة وغلبة الغفلة، أرجع الناس من حيث لا يدرون مجمل أمر الغيبة إلى الله والإمام الغائب، ومن دون أن يعرفوا دورهم وتقصيرهم والأولين منهم في هذه الواقعة، فانهم لا يعتبرون إنهم ملزمون بخفض هذا الزمان. لذلك لايتخذون إجراء وتشخيصا قدر إستطاعتهم من أجل إزالة عقبات وعوائق الظهور.

إن موضوع الغيبة، وحسب الروايات الواردة عن المعصومين، هو السُنة الثابتة لله تعالى، وإن أحد أسرار جعل هذه السُنة هو إبتلاء وإمتحان أمم جميع الأنبياء و الرسل.

ويُذكّر الله تعالى في القرآن الكريم، الجميع بانهم لن يُتركوا من دون أن يُفتنوا وتقاس صدقيتهم وحميميتهم في القول والفعل:

«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »؛[١]

وقد وقعت سُنة الغيبة شأنها شأن سائر السُنن الإلهية بين عموم الأمم في عصر الأنبياء السابقين ولا تقتصر على الأمة الاسلامية. وقال رسول الله(ص):

«لِتَسْلُكُنَّ سَبيلَ مَنْ كانَ قَبْلكُم حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ والقُذَّةِ بالقُذَة حَتى إن أحَدهُم لَوْ دَخَلَ جُحْرَ ضَبّ لدَخَلْتُموه»؛[٢]

إن أداء الأمم على امتداد التاريخ، يفضي بالنتيجة إلى ظهور وتكشف قواعد وتقاليد تقع خارج ظرف الزمان والمكان واختيار وإرادة الإنسان.

إن غيبة الحجج الإلهيين ورحيلهم عن الأمم، إستحوذ على حيز واسع من تاريخ الأنبياء السابقين.

وعبر مسار غيبة الحجج الإلهيين، إبتليت عامة الأمم بالعديد من الأزمات والمآزق والإمتحانات الصعبة، والمؤسف أن الكثير من هذه الأمم، لم تسلم ولم تبل بلاء حسنا في هذه الإبتلاءات والإمتحانات، وتعرضت بالتالي للآفات والبلايا والكوارث المفجعة. إن تبيان ما مرّ على الأمم السابقة في الكتب السماوية وما حل بها في ظل تقلبات التاريخ، هو تذكير عسى أن تتعظ به سائر الأمم وتحول دون تكرار الواقعة ونزول البلاء الذي قضى على الكثير من الأناس.

---

١. سورة العنكبوت، الآيتان ٢ و ٣.
٢. حسن‌بن علي، الإمام الحادي عشر، «التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري(ع)»، قم، مدرسة الإمام المهدي، الطبعة الاولى، ١٤٠٩(ص) ق.، ص ٤٨١.

إن سقوط الأمم في الإمتحانات الصعبة، جعلها جاهزة ومستحقة لتلقي العذاب والبلاء، وهو الذي يحدث حسب السُنة الإلهية ولا يمكن الفرار منه. إن سُنة الغيبة هي من السُنن التي جربتها الأمم والشعوب السابقة.

وعن حنانبن سدير عن أبيه عن أبى عبد اللّه الإمام الصادق(ع) قال: إن للقائِم مِنّا غَيْبَة يَطولُ أمدُها، فقُلتُ له: ولِمَ ذاک يا ابن رَسول اللّه؟ قال: إن اللّه عَزّ وجَلّ أبى إلا أن تَجْرى فيهِ سُنَن الأنبياء فى غَيْباتِهم، وإنه لا بُدّ لَهُ يا سدير، مِنْ استيفاء مَدَدِ غَيباتِهم، قال اللّه عَزّ وجَلّ لَتَركَبُنَّ طَبقاً عن طَبَقٍ[1] أى سُناً عَنْ سُنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم.[2]

لكن في وجه اخر، فان ما يمهد لوقوع هذه السُنة وابتلاء الأمم بغيبة الحجة الإلهية، معطوف على أداء الأمم إزاء أوامر الله المتعال والرسل الإلهيين.

وبلا شك، فان جميع القواعد والقوانين الثابتة التي تسري على الظواهر المادية والفيزيائية، قابلة للتجربة والمعرفة بصورة دقيقة لا يمكن تصديقها على الظواهر الماورائية وعالم الميتافيزيقا، مثلما أن الماء يغلي على اثر الحرارة، هي قاعدة مقبولة ومعقولة لدى جميع الأمم والعوام والخواص، فان الغيبة تقع على اثر الأداء السئ للأمم إزاء الحجج الإلهيين.

وقال الإمام الصادق(ع) بشأن حكم وسر الغيبة:

«وَجْهُ الحِكْمَةِ فى غَيْبَتِه وَجْهُ الحِكْمَة فى غَيْبات مَنْ تَقدَّمه، مِنْ حُجَجِ اللّه تَعالى ذِكْرُه».[3]

---

١. سورة الإنشقاق، الآية ١٩.
٢. إبن بابويه، محمدبن علي، «كمال الدين وتمام النعمة»، طهران، إسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ، ج ٢، صص ٤٨٠ – ٤٨١.
٣. «كمال الدين وتمام النعمة»، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨٢.

إن ضرورة استمرار تلك السُنة الحكيمة، هي حكمة غيبة الإمام كذلك. وقال الإمام الصادق(ع):

«إنَّ سُنَن الأنبياء عليهم السلام بما وَقَعَ بِهِم مِنْ الغَيْبات حادِثَة فى القائِم مِنّا أهلَ البَيْت حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ والقُذَّة بالقُذَّة».[١]

إن الله سبحانه وتعالي يُسيّر الأمم والشعوب عبر مسار مجموعة فريدة وواسعة من السُنن لتمضي قدما حتى تكشف الوجوه الصادقة عن الزائفة وظهور مواهبهم في الطريق المستقيم، وتجرب المراتب العليا للكمال.

وفي مجمل هذه السُنن، فان الإبتلاء هو بمثابة سُلّم يوصل المؤمنين إلى المدارج العليا.

وتوضيحا للفظة الإبتلاء يقول العلامة طباطبائي:

إن الإبتلاء يستخدم في مواقع حينما تعرض أمرا ما على أحد وتدفعه إلى حادث ما لتختبره وتمتنحه فيه، حتى تظهر لك صفاته النفسانية.

وهذه الصفات التي تظهر على نفس الإنسان، لا تظهر عندما لا يتعرض لحادث ما، ولا تُبدي قدر ومكانة صاحبها. ومن هنا فان الإبتلاء ورغم كل صعوباته، ينطوي على وجه من الرحمة.

ويقول أمير المؤمنين الإمام علي(ع) حول الإمتحان والإبتلاء الإلهيين:

«اَلا اِنَّ اللّهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لا اَنَّهُ جَهِلَ ما اَخْفَوْهُ مِنْ مَصُون اَسْرارِهِمْ وَ مَكْنُون ضَمائِرِهِمْ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلاً، فَيَكُونَ الثَّوابُ جَزاءً، وَالْعِقابُ بَواءً».[٢]

---

١. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٥.
٢. طباطبائي، محمدحسين، «تفسير الميزان»، ج ١، ص ٢٧١.

الغيبة، جزاء أعمال الأمم

إن غيبة ولي وحجة الله، هي أسوأ واقعة إن فُهِمت، فان المرء سيتخلص من كل ما بيده أو ما هو منشغل به، ويرفع يديه متوسلا إلى الباري تعالى، عسى أن يتخلص من هذه الواقعة العصيبة.

إن حجة الله ووليه، هو الحصن الحصين والسور المنيع والمحافظ لمجمل المخلوقات، وهو أمان الأرض وقائد الطريق ذات الشوكة ووسيط رزق عباد الله، إذ أنه بدون إشارة منه أو بدون إمارته وحكمه، فان العالم لن يشهد الصلاح والرخاء و العدل.

إن فقدان المعرفة بشان هذه النعمة التي هي الأرفع والأسمى من بين جميع نعم الله على خلقه، أدى إلى أن تُحرم البشرية من حضوره وإرشاده المباشر وأن تسير في تيه وضياع في الأرض.

وحسبما قال الله تبارك وتعالى فان الكفر بالنعمة يؤدي إلى سلب النعمة، بينما شكر النعمة يزيد النعمة ويزيد دوامها و بقائها:

«لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ».[1]

---

١. سورة ابراهيم، الآية ٧.

وقال الإمام محمدالباقر(ع):

«إذا غَضِبَ اللهُ تَبارکَ وتَعَالَى على خَلْقِهِ نَحَّانَا عَنْ جِوارِهِم»[1]

وفي توقيعه الشريف إلى الشيخ المفيد(رض) قال صاحب الزمان(ع):

«... وَلَوْ أَنَّ أَشْيَاعَنَا وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ عَلَى اجْتِمَاعٍ مِنَ الْقُلُوبِ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ عَلَيْهِمْ لَمَا تَأَخَّرَ عَنْهُمُ الْيُمْنُ بِلِقَائِنَا وَ لَتَعَجَّلَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ بِمُشَاهَدَتِنَا عَلَى حَقِّ الْمَعْرِفَةِ وَ صِدْقِهَا مِنْهُمْ بِنَا فَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَّصِلُ بِنَا مِمَّا نَكْرَهُهُ وَ لَا نُؤْثِرُهُ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ وَ هُوَ حَسْبُنَا وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ وَ صَلَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا الْبَشِيرِ النَّذِيرِ مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِينَ وَ سَلَّمَ وَ كَتَبَ فِي غُرَّةِ شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَ أَرْبَعِمِائَةٍ نُسْخَةَ التَّوْقِيعِ بِالْيَدِ الْعُلْيَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا هَذَا كِتَابُنَا إِلَيْکَ أَيُّهَا الْوَلِيُّ الْمُلْهَمُ لِلْحَقِّ الْعَلِيِّ بِإِمْلَائِنَا وَ خَطِّ ثِقَتِنَا فَأَخْفِهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَ اطْوِهِ وَ اجْعَلْ لَهُ نُسْخَةً تُطْلِعُ عَلَيْهَا مَنْ تَسْكُنُ إِلَى أَمَانَتِهِ مِنْ أَوْلِيَائِنَا شَمِلَهُمُ اللَّهُ بِبَرَكَتِنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ الصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين».[2]

ويُرجع الإمام(ع) في وجه، سبب الغيبة إلى الناس وزوالها إلى العودة الحميمة ومعرفتهم بحجة الله المتعال.

إن ما يمهد لوقوع هذه السُنة الثابتة وتحقق واقعة الغيبة، هو أمة كل نبي وأن ما يمهد لزوال العقبات والعوائق التي تحول دون الظهور هي هذه الأمة ذاتها.

۱. «الكافي»، ج ۱، ص ۳٤۳.
۲. «الإحتجاج على أهل اللجاج»، المصدر السابق، ج ۲، ص ٤۹۹.

ولايخفى بان غيبة حجة الله، لاتعني فقدان حجة الله في الأرض، بل إن الحضور هو عدم الظهور عينه وهو الغيبة، لان حضور حجة الله في الأرض، أمر ثابت ولا يتغير في كل حقبة وزمان بحيث ورد عنهم عليهم السلام:

«لَوْ بَقِيَتِ الأرْضُ يَوْماً واحِداً بِلا إمام لساخَتِ الأرضُ بأهْلِها».[١]

كما أن دور الإمام وحجة الله بين جميع الكائنات التي تقطن عالم الإمكان، أبعد بكثير عن إضطلاعه بدور بين عدد محدود من البشر.

وثمة روايات أخرى عن المعصومين(ع) تميط اللثام عن بعض الحكم الأخرى لغيبة حجة الله. ويقول منصور إن الإمام الصادق(ع) قال متوجها إليه:

«يا مَنْصورُ إنَّ هذا الأمْرَ لا يأتيكُم إلاَّ بَعْدَ إياس لا والله لا يأتيكُم حَتَّى تُمَيَّزوا لا والله لا يأتيكُم حَتَّى تُمَحَّصوا ولا والله لا يأتيكُم حَتَّى يَشْقى مَنْ شَقِيَ ويَسْعَد مَنْ سَعِدَ».[٢]

إختبار الخلق بالغيبة

روي عن الإمام موسى بن جعفر(ع):

«إذا فُقِدَ الخامسُ من وُلْد السابع , فاللهُ اللهُ فى أديانِكم لا يُزيلُكُم أحدٌ عنها يا بنيِّ, إنه لا بُدَّ لِصاحِب هذا الأمر مِنْ غَيْبَة حتى يَرجِع عَن هذا الأمر مَنْ كان يَقولُ بِهِ, إنّما هِيَ مِحْنَة مِنْ الله عَزَّ وجَلّ امتَحَنَ بِها خَلْقه , ولو عَلِمَ آباؤكم

١. طبري آملي الصغير، محمدبن جريربن رستم، «دلائل الإمامة»، قم، بعثت، الطبعة الاولى، ١٤١٣، ص ٤٣٦.
٢. «كمال الدين وتمام النعمة»، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٦؛ الكليني، محمدبن يعقوب.

وأجدادُكُم ديناً أصحُ مِن هذا لاتَّبَعوه، قال فقلتُ: يا سيدى مَنْ الخامسً من وُلـدِ السابع؟ قال: يا بُنىِّ عُقولكم تَصغُرُ عَن هذا وأحْلامُكُم تَضيقُ عَنْ حَمْلِـه، ولَكِـن إنْ تَعيشوا فسوفَ تُدْرِكونَه».[1]

وفـي روايـة مطولـة عـن الإمـام الصـادق(ع)، يؤكـد عليـه السلام علـى ضـرورة حضور حجة الله في الأرض على الدوام، ويعتبر أن أحد أسباب أمر الغيبـة هو ظلم الناس وجورهم وإسرافمهم على أنفسهم.

ويقول مفضل بن عمر: إن الإمام الصادق(ع) قال:

«خَبَرٌ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةَ تَرْوِيهِ إِنّ لِكُلِّ حَقّ حَقِيقَةً وَ لِكُلِّ صَوَابٍ نُوراً ثُمّ قَالَ إِنّا وَ اللّهِ لَا نَعُدُّ الرّجُلَ مِـنْ شِـيعَتِنَا فَقِيهـاً حَتّـى يُلْحَـنَ لَـهُ فَيَعْـرِفَ اللّحْـنَ. إن أميرالمؤمنين(عليه السلام) قال على منبر الكوفة: «إن من ورائكم فتنـا مظلمـة عمياء منكسفة لا ينجو منها إلا النومة، قيل: يا أميرالمؤمنين وما النومـة؟ قـال: الذى يعـرف النـاس ولا يعرفونـه. واعلمـوا أن الارض لا تخلـو مـن حجـة لله عزوجل ولكن الله سيعمى خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسـرافهم علـى أنفسـهم ولو خلت الارض ساعة واحدة من حجة لله لساخت بأهلها ولكن الحجـة يعـرف الناس ولا يعرفونه؛ كما كان يوسف يعرف الناس وهم له منكرون، ثم تلا: » يـا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن».[2]

وكأن النـاس وضـعوا يدا بيد بواسطة سمسرة الشيطان وجنوده، لكـي لا يُعطـف موضوع الغيبة وطول أمدها، علـى عمل النـاس، حتـى يتم فـي الغفلـة، تجاهـل تـذكار أيام مثل النصف من شعبان وسائر الأيام، ويزيدون بالتالي من سنوات الغيبـة.

١. «الكافي»، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٦.
٢. إبن أبيزينب، محمدبن ابراهيم، «الغيبة» (للنعماني)، طهران، نشر صدوق، الطبعة الاولى، ١٣٩٧، ص ١٤١.

ويقول الإمام محمدالباقر(ع) بصراحة على لسان إمام العصر(عج):

«إذا قامَ القائمُ(ع) قال فَفَرَرْتُ مِنْكُم لما خِفْتُكُم [1] – فَوَهَب لى رَبِّى حُكْما وَجَعَلَنى مِنَ المُرسَلين». [2]

ويقوم الإمام(ع) في وقت الظهور بكشف النقاب عن الكثير من رموز القرآن وحكمة الأوامر والنواهي وسبب الكثير من الأحداث. وكل ما بقي خافيا على خلق الله، لكنه حاضرا عند الإمام.

وتبعا لهذه الواقعة، فانه فيما يخص الكثير من الأسئلة والغموض الذي يؤدي تارة إلى اندلاع النقاشات بين المسلمين والمؤمنين أو أن يؤدي إلى بروز الشبهات يجب القول:

يجب السكوت على جميع كل ما سكت عنه المعصومون(ع)، وتجنب الفضول والإستطلاع بشان كل ما مروا عليه من دون تفسير وتوضيح. لكي لا يؤدي الإستعجال والفضول إلى بروز الشك والإرتداد ويُلقي المؤمنين إلى التهلكة، وإن كان تفسير وتوضيح الكثير من الرموز والوقائع ضروريا لتجاوز المؤمنين، العديد من عقبات الحياة (في عصر الغيبة) بصورة آمنة وسليمة، لما كان ائمة الدين يمرون عليها مرور الكرام.

إن موضوعات مثل وقت الظهور ومكان حياة الإمام(ع) وأسرته عليه السلام وما شابه ذلك، تعد من الموضوعات التي يجب تحاشي البحث بشأنها، وبدلا من ذلك

---

١. «كمال الدين وتمام النعمة»، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٩.
٢. سورة الشعراء، الآية ٢١.

إيلاء الأهمية لموضوعات مهمة بما فيها معرفة الإمام والتكليف الفردي والجماعي في عصر الغيبة.

ويكتب الإمام المهدي(ع) في رسالته الأولى إلى الشيخ المفيد(رحمه الله):

«فانّا نُحيط عِلماً بأنبائِكم ولا يَعزُبُ عنّا شَيء مِنْ أخبارِكُم ومَعْرفتُنا بالذُّل الذى أصابَكُم مُذ جَنَحَ كثيرٌ منكم إلى ما كان السّلفُ الصالحُ عنهُ شاسِعاً ونَبَذوا العَهْد المأخوذ وَراء ظُهُورِهم كأنَّهُم لا يَعْلمون إنا غَير مُهْملين لمُراعـاتِكُم ولا ناسـين لذِكْرِكُم ولو لا ذلک لَنَزَل بِكُم اللأْواء واصْطَلَمكُم الأعداء فاتّقوا الله جلّ جلالـه وظاهِرونا على انْتياشِكُم من فِتنة قد أنافَت عليكم يَهْلِـکُ فيهـا مَـنْ حُـمَّ أجَلُـهُ ويُحيى عنها من أدرک أمَلَهُ وهى أمارة لِأُزوف حَرَكتِنا ومُباثَّتكُم بأمرنـا ونهينـا والله مُتمّ نوره ولو كَرِهَ المُشركون»؛[1]

إن كل ما كان لازما وضروريا للعيش الإيماني في الأرض، كتب في هذه الرسالة التي هي موجهة في الظاهر إلى الشيخ المفيد(رض)، لكنها موجهة في الحقيقة إلى عامة المؤمنين.

وأليس الكثير منا، نمشي في الأرض بلا تقوى وطاعة، ونلتزم بجميع العهود التي هي في رقبتنا ماعدا العهد مع الإمام وحجة الله، الأمر الذي فرضه الله علينا؟

ويكتب الإمام(ع) في توقيعه الثاني إلى الشيخ المفيد(رض):

فليَعْمل كلُ أمرءٍ مِنكُم بِما يَقرُبُ بِهِ مِن مَحَبَتِنا، ويَتَجَنَّب ما يُدْنيه مِن كَراهيتِنا وسَخَطِنا فإن أمْرَنا بَغْتةٌ فُجاءة حين لا تَنْفَعُهُ تَوْبةٌ ولا يُنْجيه مِن عِقابِنا نَدَم على حَوْبَة».[2]

---

١. «الإحتجاج على أهل اللجاج»، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٧.
٢. المصدر السابق، ص ٤٩٨.

حيرة النعجة على ضفاف النهر

إن بعض الناس يبدون خلال تجاوز العقبات وعبور مطبات جادة الحياة، سرعة ودهاء والبعض الاخر بطئا وكسلا والبعض يبقون دائما في الشك والتردد. وردا على سؤال لأحد الأصحاب حول زمن انتهاء الغيبة وتجربة واقعة الظهور، يأتي الإمام محمدالباقر(ع) بمثال بديع يكشف النقاب عن الكثير من الحقائق.

و يقول زرارة بين أعين الشيباني و هو من كبار صحابة الإمامين الباقر و الصادق(عليهما السلام) وله مكانة مرموقة عندهما. ومجمع عليه في الوثاقة و الصدق من بين أصحاب الأئمة:

إن حمران (ابن أعين الشيبانى وهو كان أيضا من كبار صحابة الإمام الباقر و الصادق(عليهما السلام)، سأل الإمام الباقر(ع) فقال: جعلنى الله فداك لو حدثتنا متى يكون هذا الامر فسررنا به؟

فقال يا حمران إن لک أصدقاء وإخوانا ومعارف، إن رجلا كان فيما مضى من العلماء، وكان له ابن لم يكن يرغب فى علم أبيه ولا يسأله عن شئ، وكان له جار يأتيه ويسأله ويأخذ عنه، فحضر الرجل الموت فدعا ابنه فقال: يا بنى إنک قد كنت تزهد فيما عندى وتقل رغبتک فيه، ولم تكن تسألنى عن شئ، ولى جار قد كان يأتينى ويسألنى ويأخذ منى ويحفظ عنى فإن احتجت إلى شئ فأته، وعرفه جاره، فهلک الرجل وبقى ابنه، فرأى ملک ذلک الزمان رؤيا فسأل عن الرجل فقيل له قد هلک، فقال الملک: هل ترک ولدا؟ فقيل له نعم

ترک ابنا، فقال إئتونی به، فبعث إليه ليأتی الملک، فقال الغلام: والله ما أدری لما يدعونی الملک، وما عندی علم، ولئن سألنی عن شئ لافتضحن، فذكر ما كان أوصاه أبوه به، فأتی الرجل الذی كان يأخذ العلم من أبيه فقال له: إن الملک قد بعث إلی يسألنی ولست أدری فيم بعث إلی، وقد كان أبی أمرنی أن آتيک إن احتجت إلی شئ، فقال الرجل: ولكنی أدری فيما بعث إليک، فإن أخبرتک فما أخرج الله لک من شئ فهو بينی وبينک، فقال: نعم، فاستحلفه واستوثق منه أن يفی له فأوثق له الغلام، فقال: إنه يريد أن يسألک عن رؤيا رآها أی زمان هذا؟

فقل له: هذا زمان الذئب. فأتاه الغلام فقال له الملک: هل تدری لم أرسلت إليک؟ فقال: أرسلت إلی تريد أن تسألنی عن رؤيا رأيتها أی زمان هذا؟ فقال له الملک: صدقت فأخبرنی أی زمان هذا؟ فقال له: زمان الذئب، فأمر له بجائزة، فقبضها الغلام وانصرف إلی منزله، وأبی أن يفی لصاحبه، وقال: لعلی لا أنفذ هذا المال ولا آكله حتی أهلک، ولعلی لا أحتاج ولا أسأل عن مثل هذا الذی سئلت عنه، فمكث ما شاء الله، ثم إن الملک رأی رؤيا فبعث إليه يدعوه فندم علی ما صنع، وقال: والله ما عندی علم آتيه به، وما أدری كيف أصنع بصاحبی وقد غدرت به ولم أف له، ثم قال: لآتينه علی كل حال، ولاعتذرن إليه ولاحلفن له فلعله يخبرنی، فأتاه فقال له: إنی قد صنعت الذی نعت، ولم أف لک بما كان بينی وبينک، وتفرق ما كان فی يدی، وقد احتجت إليک فأنشدک الله أن لا تخذلنی، وأنا أوثق لک أن لا خرج لی شئ إلا كان بينی وبينک، وقد بعث إلی الملک ولست أدری عما يسألنی، فقال: إنه يريد أن

يسألك عن رؤيا رآها أى زمان هذا؟ فقل له: إن هذا زمان الكبش، فأتى الملك فدخل عليه، فقال: لما بعثت إليك؟

فقال: إنک رأيت رؤيا، وإنک تريد أن تسألنى أى زمان هذا، فقال له: صدقت: فأخبرنى أى زمان هذا؟ فقال: هذا زمان الكبش، فأمر له بصلة، فقبضها وانصرف إلى منزله، وتدبر فى رأيه فى أن يفى لصاحبه أو لا يفى له، فهم مرة أن يفعل ومرة أن لا يفعل، ثم قال: لعلى أن لا أحتاج إليه بعد هذه المرة أبدا، وأجمع رأيه على ما صنع على الغدر وترک الوفاء، فمكث ما شاء الله، ثم إن الملک رأى رؤيا فبعث إليه فندم على ما صنع فيما بينه وبين صاحبه، وقال: بعد غدر مرتين: كيف أصنع وليس عندى علم، ثم أجمع رأيه على إتيان الرجل، فأتاه فناشده الله تبارک وتعالى وسأله أن يعلمه وأخبره أن هذه المرة يفى منه (له) وأوثق له وقال: لا تدعنى على هذه الحال فإنى لا أعود إلى الغدر وسأفى لک، فاستوثق منه فقال: إنه يدعوک يسألک عن رؤيا رآها أى زمان هذا؟ فإذا سألک فأخبره أنه زمان الميزان، قال فأتى الملک فدخل عليه فقال له: لم بعثت إليک؟ فقال: إنک رأيت رؤيا وتريد أن تسألنى أى زمان هذا، فقال: صدقت فأخبرنى أى زمان هذا؟ فقال: هذا زمان الميزان، فأمر له بصلة فقبضها وانطلق بها إلى الرجل، فوضعها بين يديه وقال: قد جئتک بما خرج لى فقاسمنيه، فقال له العالم: إن الزمان الأول كان زمان الذئب وإنک كنت من الذئاب، وإن الزمان الثانى كان زمان الكبش يهم ولا يفعل وكذلک كنت أنت تهم ولا تفى، وكان هذا زمان الميزان وكنت فيه على الوفاء، فاقبض مالک لا حاجة لى فيه، ورده عليه».[1]

١. «الكافي»، المصدر السابق، ج ٨، صص ٣٦٢ – ٣٦٣.

وفي هذه الرواية الطويلة فان الإمام محمد الباقر(ع) يُحيل مسالة سُنة الغيبة التي اعترضت أمة محمد المصطفى(ص) إلى توافر حالة نفسانية خاصة، كالطبع المنادي بالعدالة وزوال الطبع الذئبي المفترس والشك والتردد على غرار الكبش. وأي من هذه الحالات الثلاث يميط بلا شك اللثام عن عهد وميثاق عام، وإلا فان هناك أشخاصا في كل عصر وزمان، يهتمون ويهمون بالعبودية والدعوة إلى العدل رغم الظروف الأخلاقية والثقافية السائدة.

إن ما يُبيّن ويُعرّف الموقع الثقافي والحضاري لكل عصر وزمان، هو الميثاق القلبي والعام في كل مجال ثقافي وكل أمة مع الإمام الذي أخذوا على عاتقهم تبعيته ويعيشون عصره.

ويمكن القول بصراحة أن لا ثقافة وحضارة بغير إمام.

إن موضوع الإمامة لا يقتصر على إمامة وزعامة الأنبياء والأوصياء الإلهيين. لأن أئمة الكفر والشرك والزندقة أخذوا معهم حشدا غفيرا من الناس ليلقوا بهم إلى هاوية الهلاك والفناء.

وفي عصرنا وجيلنا، فان الثقافة والحضارة الجارية وتبعا للتاريخ الغربي الجديد، أقرت بإمامة النفس الأمارة الفردية والجماعية واستقطبت مستندة إلى المذهب الانساني والليبرالية، خلق الله إليها.

ويتعين بالضرورة على أناس هذا العهد والميثاق، نبذ الطبيعة العدوانية والمفترسة المتأصلة في المجال الحضاري، لكي يكونوا جاهزين لاستقبال العهد الجديد.

إن الأناس الذين انفصموا عن إمامة الولي والإمام المنصوب من قبل حضرة الحق وسكنوا الحالة النفسانية والعامة للنعجة، واستكانوا في عهدها بحيث أصبح من

الصعب عليهم بمكان إعادة الأمانة الإلهية إلى أهلها، ليسوا جاهزين لإبرام العهد والميثاق مع الحجة الإلهية.

وخلال تجربة الإضطرار والإضطراب، فعندما يؤمن الانسان بضلالة إمامة الكفر والشرك والزندقة، ولا يعرف مخرجا يأخذ بيده للخروج من الأزمة والمأزق، فانه يطلب من أعماق قلبه سبيلا للخلاص والنجاة ويرفع يديه بالدعاء مبتهلا إلى الله تعالى فيقول:

«أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».[1]

١. سورة النمل، الآية ٦٢.

هو الغني

إن العجز الذاتي للانسان عن درك معنى الفقر الباطني لجميع الكائنات المقيمة في عالم الإمكان (الجن والإنس والملك و ...) والثراء الذاتي لله القادر المتعال، يؤدي إلى بروز سوء الفهم لدى الانسان في درك أفعال الله. أضف إلى ذلك، جهل الانسان حول الصلاح والفساد، العدل والظلم، واختلاط الحق بالباطل والناتج عن كل فعل وعمل في علاقات خلق العالم وصولا إلى التأخير والتعجيل في الإمتثال لأوامر ونواهي الله والأنبياء والأوصياء الإلهيين، وما ينتج ويتسبب بخسائر. وكم من الأناس الذين سقطوا في هذا المسار في براثن الضلال وخرجوا من فئة المؤمنين.

إن الله سبحانه و تعالى غني عن إيمان خلقه وعبادتهم، وفي الوقت ذاته فانه مُحب لهم حتى أكثرهم ذنبا ومعصية. لذلك فان هذا الغني الحكيم، ليس في عجلة من أمره لالقاء عباده في الجحيم أو إدخالهم جميعا في قبيلة الإيمان، رغم أنه قادر متعال وهو على كل شئ قدير وأنه سريع الرضا و واسع المغفرة وغافر الذنوب.

«إِنَّ رَبَّکَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ».[1]

---

١. سورة النجم، الآية ٣٢.

و فيما يخص الهداية و الضلال، فان مسألة الإختيار في إنتخاب الطريق و الإمتحان والإبتلاء لقياس مدى الصمود والمقاومة في جادة الإيمان، تكتسي أهمية بالغة.

ولم يغفل أي من الأنبياء الإلهيين وأوصيائهم الموضوعين المهمين آنفي الذكر أي الأختيار والإمتحان، في مجال الدعوة والتبشير بالدين الإلهي لدى عباد الله وتطبيق الأحكام. وعلى النقيض من بعض الناس الذين يظنون انه يمكن من خلال تجاهل هذين الأمرين المهمين وأحيانا اللجوء إلى القوة والإكراه، تمهيد جادة الإيمان والفلاح وإرشاد خلق الله نحو الجنة. والأفظع من ذلك، عندما يظن أحدهم أنه يمكن من خلال التدخل في المقدرات الإلهية وشطب الإختيار وحق الناس في الإنتخاب وتجاهل سُنة الإبتلاء والإمتحان الضروري لجميع الكائنات صاحبة العقل، تطبيق الحق ودحض الباطل عن طريق الخدعة والمكيدة.

وتظهر التجربة التاريخية أن هكذا سلوكيات تزيد حسب السُنة الإلهية من حجم ونطاق المفاسد. ويقول الله تبارك وتعالى في سورة السجدة:

«وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».[1]

إن الله لا يضع أي انسان عن طريق القوة والإكراه على طريق الحق، رغم أن هذا الامر ثابت لله، لكن بما أن الحجة قد أتمت على جميع الكائنات المخيرة من خلال إرسال الرسل وإنزال الكتب، فان حق عذاب العُصاة ثابت لله تعالى.

ويقول الله تعالى بصراحة في سورة النمل:

---

١. سورة السجدة، الآية ١٣.

«وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابّةٍ وَلَـٰكِنْ يُؤَخّرُهُمْ إِلَـىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى».[١]

وبنفس الحكمة التي لا يُعاقب فيها الله الظالمين دفعة واحدة، ولا يسلب منهم قدرتهم على الإنتخاب والإختيار حتى يحين أجلهم المقرر والمعين، فانه لا يجعل خلق العالم على هيئة أمة واحدة دفعة واحدة. ويقول القرآن الكريم بهذا الخصوص:

«وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنّ عَمّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».[٢]

إن السؤال عن الأعمال المنجزة، هو النتيجة المقبولة لقوة الإنتخاب لدى الانسان ولطف الهداية من قبل الله تعالى.

وتبعا لهذه السُنة الإلهية، فانه لا يشاهد في سيرة أي من الأنبياء والأوصياء الإلهيين حتى عندما كانوا يملكون القوة والمكنة في العمل والحكم، عملا أو حكما يدل على سلب إختيار الناس وترك امتحانهم. إن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمام الحجة والتبليغ والدعوة وتطبيق الأحكام الإلهية في وقت وجود الإمكان والقوة، وكما هو ثابت في سيرة وسُنة جميع الإنبياء والأولياء، يختلف عما يتم تبيانه هنا.

وفي سيرة أي من الأنبياء والأوصياء نشاهد علامة أو موطئ قدم للمكيدة والحيلة والخدعة أو ما يعبر عنه اليوم تحت عنوان «الغاية تبرر الوسيلة»؟

ويقول مولى المتقين الإمام علي(ع) في نهج البلاغة:

---

١. سورة النحل، الآية ٦١.
٢. سورة النحل، الآية ٩٣.

«وَاللّهِ ما مُعاوِيَةُ بِاَدْهى مِنّى، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ، وَ لَوْلا كَراهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ اَدْهَى النّاسِ؛ وَلكِنْ كُلُّ غَدرَة فَجْرَةٌ، وَ كُلُّ فَجْرَة كَفْرَةٌ، وَ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ. وَاللّهِ ما اُسْتَغْفَلُ بِالْمَكيدَةِ، وَ لا اُسْتَغْمَزُ بِالشَّديدَةِ».[١]

إن اللجوء إلى المكر والخديعة، في أي مسار حتى بظن توفير ظروف أفضل للمؤمنين والصالحين أو جعل الناس في مسار الهداية، يؤدي حسب السُنة الإلهية التي لا تغيير فيها إلى فوران الفساد والضياع، لان الحلال والطيب لا ينبع أساسا من الحرام والمعصية. بعبارة أخرى فان الإناء ينضح بما فيه.

وفي السياسة والحكم السابقين، يشكل معاوية وفي الوقت الحاضر مكيافيلي مثالين بارزين للحكام الذين أباحوا و أجازوا إتباع الحيلة والمكر في مجال الحكم بل شددوا على ضرورة ذلك.

وفي هذا الأسلوب، فانه لا يتم التمييز بين الصالح والطالح، لان ميدان العمل و الإختيار، يُزال. كما أنه حسب السُنة الإلهية الثابتة، فان جميع الناس يجب أن يمروا في دار الإبتلاء والإمتحان عبر الغربال ليظهروا سيرتهم و صورتهم كما هي وليتضح من هو الصالح ومن هو الفاسد؟!

إن من ظن في مسار أهل الإيمان، إنه يزيد من جغرافيا أهل الإيمان عن طريق إقحام الخدعة و المكيدة، كان غافلا من هذه النقطة و هي: «هو الغني الحميد» و «هو العلي الكبير» و «هو الولي القدير».

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩١

جعل التكليف

إن الدين والمتدينين، عانوا طوال التاريخ من المتدينين جاعلي التكليف، بقدر ما عانوا من الظالمين والطغاة مثل معاوية.

إسمحوا لي أن أذكر قصة لتبيان هذه العبارة:

وقد بين القرآن الكريم قضية النزاع بين القبائل وأسباط «بنيإسرائيل» أثناء مقتل أحد أفراد «بني اسرائيل» بصورة غامضة. وقد حمل كل من القبائل والأسباط أحدهم الاخر مسؤولية هذا القتل لتبرئة نفسه. و عندما ذهبوا إلى النبي موسى(ع) للتحكيم وتسوية الخلاف، أقدم النبي موسى(ع) بطريقة الإعجاز على حل المشكلة مستمدا العون من الله، وبهدف وضع نهاية لهذا النزاع الذي كان يمكن أن يؤدي إلى فتنة أكبر.

وأمر النبي موسى(ع) بذبح بقرة وضرب قطعة من القربان على المقتول ليتضح للجميع ما كان خافيا بعد أن يحيى المقتول (باذن الله).

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ».[1]

---

١. سورة البقرة، الآية ٧٣.

وصعّب بنو اسرائيل الامر على أنفسهم وذلك من خلال طرح أسئلة متتالية حسب عادتهم القديمة حول كيفية البقرة التي يجب ذبحها لكي يتم وضع نهاية للقضية.

وقالوا: ادعوا ربك ليوضح لنا ما لون هذه البقرة؟

وكل مرة كانوا يطرحون سؤالا جديدا، ليحدثوا لهم تكليفا جديدا و أصعب.

إن الإختيار والتكليف و إمكانية العمل، تمضي قدما جنبا إلى جنب دائما. وكلما أضيف على نسبة الإمكانات يتسع نطاق دائرة التكليف، وعلى العكس، إن أصبح الإختيار والإمكان محدودا ومقيدا، أصبحت دائرة التكليف أكثر ضيقا وانغلاقا، بحيث قال الله تعالى:

«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».[١]

وإن كان كل منا وفي إطار موقعه والإمكانات التي يملكها، واعيا بتكليفه ويقوم بتأديته في أوانه، فان قسما كبيرا من المعاناة والمحن التي تثقل كاهل المستضعفين والمؤمنين، سيزول، و تبعا لذلك، فان الفرج سيحين موعده.

إن الأطماع والتقاعس وتجاهل التكليف والتملص من الإلتزام الذي يقع حسب الأوامر والنواهي الإلهية على عاتق كل انسان وأحيانا جعل التكليف بما هو أبعد من نسبة قبول وسعة المُكلّف و حتى حذف التكليف – هناك حيث تقرر تكليف ولا يوجد

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

إمكان لإنجازه – يُخلف كوارث كبيرة. و ربما هناك الكثير من الأناس الذين يقومون بتعريف وجعل التكليف لأنفسهم، و برغم فقدان إمكانية العمل اللازم، يصابون بعشرت الحالات من الحرام ويضيفون بذلك على حجم ونطاق الأزمات المصابين بها.

و في التأخير آفات

يقول الشيخ علاء الدولة سمناني، أحد كبار أهل التصوف و من شعراء القرنين السابع و الثامن للهجرة، في صفة الشيطان وغَرارة الانسان:

«إن صفة الشيطان، هى الخداع والتضليل، وحظه من بنى آدم هو دعوته له للشر المطلق. فان عجز فى هذا، فانه يمنعه من فعل الخير، وإن عجز فى هذا، فانه يدعوه من شئ أكبر إلى شئ أصغر منه. فان عجز فى هذا، فانه يعد الانسان بالنسيئة مستقبلا عوضا عن نقد جاء من أجله حاليا».[1]

إن مجمل الأمور الإعتبارية لهذا العالم، هي ألاعيب، تنزع من بني آدم مجال تجربة النضوج لكي يبقى في الغَرارة ويخسر جميع الفرص. إن حكمة توالي الأيام والأحايين الموسومة والمُعَلَّمة، جيئة وذهابا، بما فيها شعبان ورمضان ومحرم والتي هي أكثر تألقا في جميع القرون والعصور، والتي بقيت من دون تنفيذ في صفحة التاريخ وحياة الانسان، هي من أجل التخلي عن مجمل صفة حيرة النعجة على ضفاف النهر، والقفز فوق نهر الحيرة والتردد، لتوصل نفسها إلى مرعى آمن، ومن

---

١. علاء الدولة سمناني، «مصنفات»، باهتمام نجيب ماهل هروي، ص ٩٨.

أجل أن يتخلى الانسان عن مجمل صفة ابن آوى في الحيلة والمكر، ويترك الخداع والإحتيال، ليواجه في صفاء تام، حجة الله و رعايا حجة الله.

إن من يفتك في صفة الذئب الإفتراسية، في المراتع والمروج بقطيع عباد الله، ويمزقهم كي يوسع من مكانه وموقعه ويزيد من حظه وسهمه، فانه سيجرب الخزي والعار في غمضة عين.

و كأن هذه الأيام والأحايين، أكثر تألقا من كل القرون والأعصار، بقيت محفورة على جبين التاريخ عسى أن يتذكر بنو آدم. و من أجل الخلود الدائم، لا سبيل سوى الإنخراط مع رجال في قبيلة الإيمان والفلاح، استقطبوا مجمل الخلود و البقاء.

وقال الله تعالى متوجها إلى النبي الأكرم:

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».[1]

١. سورة مريم، الآية ٣٩.